

المحاضرة السادسة: الغزو الوندالي والبيزنطي ومقاومته

➤ المكتسبات القبلية:

- التعرف على الوضع السياسي والاجتماعي لشمال إفريقيا قبل الغزو الوندالي، خاصة في العهد الروماني المتأخر
- معرفة البنية القبلية والبربرية (الأمازيغية) في المغرب الأوسط والمغرب الكبير، وفهم طبيعة تنظيمها السياسي والاجتماعي.
- الإلمام بالديانة المسيحية في شمال إفريقيا ودور الكنيسة والدوناتية في الانقسامات الداخلية.
- فهم عام لمسار تدهور الإمبراطورية الرومانية الغربية وانتقال السلطة بين القوى المتصارعة.
- الإلمام بمفهوم الغزو الخارجي وتداعياته على المجتمعات المحلية.

➤ الأهداف العامة:

- معرفة الظروف التي سمحت بدخول الوندال إلى شمال إفريقيا سنة 429م، وتحليل دوافع الغزو ونتائجه.
- فهم طبيعة الحكم الوندالي في المنطقة: سياساتهم، علاقتهم بالسكان المحليين، ودور الاضطهاد الديني.
- إدراك خلفيات التدخل البيزنطي (الحملة البحرية لبلزاريوس سنة 533م) وأهداف الإمبراطور جستنيان في إعادة توحيد الإمبراطورية الرومانية.
- تحليل مظاهر المقاومة المحلية ضد كل من الوندال والبيزنطيين، مع التركيز على دور القبائل الأمازيغية والزعماء المحليين.
- تقييم أثر الغزوين في البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية لشمال إفريقيا.
- التمييز بين طبيعة الحضور الوندالي المؤسس على الاحتلال، والحضور البيزنطي القائم على إعادة الهيمنة الإدارية والعسكرية.
- استخلاص النتائج الكبرى التي مهدت لاحقاً لدخول الفتح الإسلامي.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

1. الغزو الوندالي:

أ. التعريف بالوندال:

لا طالما اقترن لفظ الوندال بالوحشية والتخريب في أذهان الجميع، وقد شاع استعمال اللفظ في جل اللغات الأوروبية على أنه مرادف للأعمال الوحشية، في حين رأى البعض منهم على أن اسم الوندال مرتبط بقرية تقع في السويد اسمها فاندال وهي موطنهم الأصلي على حسب اعتقادهم، وقد ذكر البعض أنهم قدموا من دول شمال أوروبا أواخر الألف الأولى قبل الميلاد نحو جنوب بحر البلطيق ومنها إلى ألمانيا حيث أصبحوا جيرانا للدولة الرومانية من جهة الشمال خلال القرن الرابع ميلادي، ومن ثم هاجروا إلى إسبانيا.

الصورة الأولى:

خريطة لتوسع الوندال.



د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

ب. أسباب ودوافع الغزو الوندالي لبلاد المغرب القديم:

- تعددت الأسباب والدوافع التي دفعت بالوندال إلى مغادرة إسبانيا نحو شمال إفريقيا ونذكر منها:
- معاناتهم من الصراعات الخارجية الروم من جهة والقوط من جهة ثانية.
- رغبة الوندال في الحصول على الثروات ونهب الخيرات التي لم تتوفر بالقدر الكافي في إسبانيا.
- حلمهم بالاستيلاء على روما وهذا لن يتأتى إلا بالسيطرة على الأراضي التابعة لروما.
- الأوضاع الداخلية للمغرب القديم من صراعات دينية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية.

ت. مسار الغزو الوندالي في شمال إفريقيا:

شهدت حركة عبور الوندال إلى شمال إفريقيا انطلاقها من الضفة المغربية عبر مضيق جبل طارق، حيث تمكنوا من العبور بجيوشهم نحو السواحل الأوروبية المحاذية للمضيق في شهر ماي من سنة 424م. وقد تحركت قواتهم بقيادة جينسيريك بدايةً نحو منطقتي سبتة وطنجة، اللتين أصبحتا بعد ذلك مركزين متقدمين للإشراف على الاتجاه العام نحو شمال إفريقيا.

أمّا على الجانب الإفريقي، فقد بدأت آثار هذا العبور تظهر تدريجيًا باتجاه نوميديا بالدرجة الأولى. وانطلقت قوات الوندال نحو المناطق الداخلية، خلال شهر جوان من سنة 424م تقريبًا، قاطعين مسافة تُقدّر بـ 700 ميل، بجيش يتراوح عدده ما بين 10.000 و 15.000 محارب. ولم يصلوا إلى مدينة عنابة إلا في سنة 430م، بعد أن تجاوزوا مختلف الحواجز الدفاعية التي صادفتهم.

وقد قام الوندال، خلال تقدمهم، بتقسيم قواتهم إلى ثلاثة أفواج؛ اتجه الفوج الأول نحو عنابة عبر الطريق الساحلي بمحاذاة وادي الشعبة والصومام، بينما سلك الفوج الثاني المسالك الجبلية المحاذية لجبال البيان، إلى أن التقت هذه القوات ثانيةً بالقرب من مدينة عنابة.

استقر الوندال في المجال الجغرافي الممتد من الأراضي البروقنصلية إلى أجزاء من نوميديا شرقًا، إضافة إلى مقاطعة طرابلس، وذلك بموجب معاهدة سنة 442م. وفي المقابل، لم يبقَ تحت السيطرة الرومانية سوى الجزء الغربي من المغرب الأدنى، وهي المناطق التي لم تبقى طويلاً تحت الحكم الروماني، إذ سرعان ما سيطر عليها بعض القبائل المحلية.

أما أقصى امتداد للوندال غربًا فقد وصل إلى منطقة بويو (جميلة الحالية)، وهو الامتداد الذي استمر إلى غاية سنة 452م. وفي الاتجاه الجنوبي، شكلت منطقة الأوراس الحد الأقصى لنفوذهم قبل اندلاع ثورات "المور"، التي وسّعت

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

أمرأؤها نفوذهم نحو الشمال، وهو ما دفع بعض المؤرخين إلى تقدير المساحة الخاضعة للسيطرة الرومانية في تلك المرحلة بما لا يزيد عن ربع المساحة الإجمالية للمغرب القديم.

الصورة رقم 02:

خريطة للأراضي التي سيطر عليها الوندال في شمال إفريقيا.



د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

ث. مقاومة الغزو الوندالي:

مع بداية الزحف الوندالي نحو المغرب القديم، فإن السكان الأصليين لم يبدو أي مقاومة ضدهم، بل العكس قد وقع، حيث وجد الوندال كل الدعم من السكان، ولكن بعد وفاة الملك جينسريك سنة 477م، شهدت المنطقة جملة من الاضطرابات بحيث لم يعد سكان المنطقة راضين عن التواجد الوندالي في المنطقة ومن بين أهم الانتفاضات ضد التواجد الوندالي:

• ثورة الأوراس عام 488م:

تعتبر أهم ثورة قامت ضد الوجود الوندالي، حيث تحصن البربر في الجبال ولم يدقر الوندال الوصول إليهم ولا أن يلحقوا الهزيمة بهم، ولعل السبب الرئيسي في هذه الثورة التي اندلعت كان بسبب الظلم المسلط على الأهالي فقد كان ابن الملك جينسريك وهو هنريك يعتقد المذهب الآريوسي المتشدد والمتعصب؛ تمكن سكان الأوراس من السيطرة على العديد من الأراضي التي كانت تابعة للوندال على غرار تمقاد وتبسة.

• ثورة أنطالاس عام 530م:

ظهرت ثورة أخرى في المناطق الحدودية بين تونس والجزائر بقيادة أنطالاس والذي تمكن من هزيمة الجيش الوندالي بقيادة هلدريك.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

2. الغزو البيزنطي:

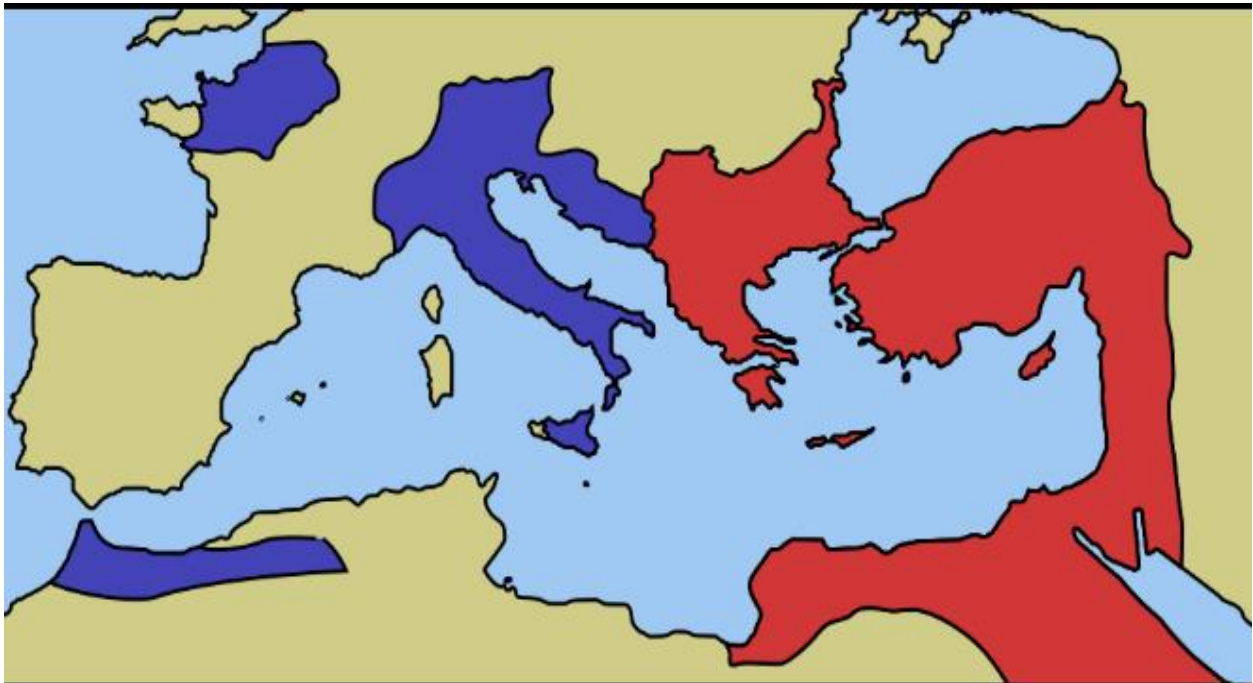
أ. التعريف بالبيزنطيين:

مما عرف عند العرب أنهم يطلقون اسم الروم على أهل المملكة الشرقية من اللاتين والإغريق يطلقون على هؤلاء الروم اسم البيزنطيين، وذلك نسبة إلى عاصمة دولتهم التي كانت تدعى بيزنطة، وهي مدينة قديمة ذات موقع هام لتوسطها بين قارتي آسيا وأوروبا، وهي تقع على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الأبيض المتوسط.

يعود أصل كلمة بيزنطة إلى أن الامبراطور قسطنطين اتخذ القسطنطينية عاصمة له، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة والتي تأسست في القرن السابع قبل الميلاد، وعندما استولى الرومان على بلاد الإغريق تمكن قسطنطين من نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى هذه المدينة سنة 330م، وفي سنة 395م بعد وفاة الإمبراطور ثيودور تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: الشرقية تحت إمرة أركاديوس وهي الإمبراطورية البيزنطية، والغربية تحت إمرة هنوريوس وهي الإمبراطورية الرومانية الغربية.

الصورة رقم 03:

خريطة توضح موقع الإمبراطورية البيزنطية.



د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

ب. الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب:

كان طموح الامبراطور البيزنطي جوستينيانوس الراغب في إنشاء إمبراطورية عالمية واسترداد أمجاد الإمبراطورية الرومانية وراء الحملة البيزنطية على بلاد المغرب، كما يمكن تحديد مجموعة من الأسباب والعوامل وراء هذا الاحتلال:

- الصراع الديني الذي كان قائما آنذاك بين المذهبين المسيحي الكاثوليكي والأريوسي، وما نجم عنه من تعرض كاثوليك إفريقيا لمتابعات واضطهادات عديدة طيلة فترة حكم الوندال الأريوسيين.
- الثورات المحلية ضد الوندال سببت إخراجا للسلطة القائمة، حيث استقلت الأوراس بعد ثورتهم، وكذا منطقة الحضنة والزيان.
- تجبر الملك الوندالي جلمير واضطهاده للقبائل المحلية.
- انحياز القبائل القوطية الشرقية في إيطاليا إلى البيزنطيين.

ت. الحملة البيزنطية على شمال إفريقيا:

نزل الأسطول البيزنطي بسواحل إفريقيا في أوائل سبتمبر من سنة 533م بقيادة القائد البيزنطي بليزار، وكانت سوسة أول مدينة يتم احتلالها، ومن ثم جهز الوندال جيشهم ووقعت معركة سيد فتح الله والتي انتهت بهزيمة الوندال، فتمكن البيزنطيون من دخول قرطاجة يوم 14 سبتمبر 533م.

ث. مقاومة الاحتلال البيزنطي:

- التصدي لحملة جوهانوس روقاتينوس سنة 563م:

اندلعت هذه الحملة نتيجة ثورة قبائل "المور" القاطنة شمال جبال الأوراس، جنوب مقاطعة نوميديا، ضد البيزنطيين. وجاءت شرارة التمرد بعد اغتيال الحاكم البيزنطي لشمال إفريقيا، جوهانوس روقاتينوس (Rogatius Johannus)، لرعيم قبيلة الماستراكييني كوتريناس، الذي كان أحد أوفى حلفاء البيزنطيين. وكان كوتريناس قد قدم إلى قرطاجة للمطالبة بالمنحة السنوية التي اعتاد تلقيها في عهد سولومون وتروقليتا مقابل تحالفه معهم، غير أن الأزمة المالية التي كانت تمر بها الخزينة البيزنطية دفعت روقاتينوس إلى إنهاء هذا التحالف عبر قتله.

أثار اغتيال كوتريناس غضب قبيلته، فهب أبناءه بقيادة قبيلة الماستراكييني (Mastraciani) في ثورة واسعة، وتمكنوا من السيطرة على عدة مناطق زراعية في نوميديا، التي تعرضت للنهب والتخريب. ولم ينجح روقاتينوس في القضاء على

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

الثورة بسبب قلة قواته، بعد أن جرى إرسال قسم كبير منها إلى المقاطعات الأخرى. وأمام تفاقم الوضع، طلب من الإمبراطور جستينيانوس الدعم، فأرسل إليه تعزيزات بقيادة ماركيانوس (Marcianus) وقد تمكن هذا الأخير من إخماد الثورة، لكن بعد أن ألحق الثوار دمارًا كبيرًا بالمناطق الزراعية. ورغم انتهاء التمرد، فقد خلف أزمة اقتصادية حادة، إذ انخفض الإنتاج الزراعي بفعل انعدام الأمن، وتعرضت ممتلكات السكان لسلسلة من الهجمات المستمرة من قبل المتمردين.

• مقاومة حملات جناديوس 578-595:

أ. حملة 578م:

كان السبب المباشر للحملة البيزنطية الجديدة هو القضاء على ثورة الملك الموري غامسول، زعيم قبيلة مكوريتاي في موريطانيا القيصرية، الذي استغلّ ضعف البيزنطيين العسكري فتمرد عليهم. وتزايد خطره بعد تمكنه من قتل ثلاثة من كبار المسؤولين البيزنطيين: الحاكم ثيودور سنة 560م، ثم قائدين عسكريين آخرين سنة 570م، ومن بينهم أمبليس. جمع القائد البيزنطي جناديوس ما توفر لديه من قوات، وتوجه نحو موريطانيا القيصرية في نهاية سنة 578م للقضاء على التمرد، لكنه واجه مقاومة شديدة، واتسع نطاق الثورة ليشمل أجزاء من موريطانيا الطنجية. وقد دفع عنف المعارك كثيرًا من السكان إلى الهجرة نحو إسبانيا والجزر المجاورة. وبسبب استمرار الثورة وصعوبة القضاء عليها، قرر الإمبراطور جوستينوس الثاني إشراك تيبيريوس الثاني في الحكم. وبعد وفاة جوستينوس تولى تيبيريوس السلطة، وركز جهوده على إنهاء ثورة غامسول، فعين القائد توماس حاكمًا لشمال إفريقيا، وأبقى على جناديوس قائدًا أعلى للجيش، ثم أرسل تعزيزات عسكرية كبيرة. أسفرت هذه الحملة عن هزيمة الثوار ومقتل غامسول حوالي سنة 578م، مما سمح للبيزنطيين باستعادة السيطرة على المنطقة.

وبعد القضاء على الثورة، اتجه البيزنطيون إلى تعزيز دفاعاتهم عبر ترميم أو بناء حصون جديدة لصدها هجمات القبائل، مثل ترميم حصن ترينوك بين 578-580م، وتحسين تحصينات قلعة خنشلة بين 578-584م، التي أصبحت قاعدة عسكرية مهمة في جبال الأوراس.

ب. حملة 587-589م:

لم تتحسن الأوضاع الأمنية في شمال إفريقيا رغم الإصلاحات الإدارية التي قام بها الإمبراطور موريكيوس (582-602م)، إذ تخلى البيزنطيون عن عدد من المناطق الساحلية في موريطانيا القيصرية وجزء كبير من موريطانيا السطيفية، كما جمعت السلطان المدنية والعسكرية في يد واحدة لضمان وحدة القيادة في مواجهة الثورات المتكررة.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

وأمام سوء الإدارة والضرائب الثقيلة وتعسف الموظفين، إلى جانب تهديد القبائل الوثنية وممارساتها الطقوسية، اندلعت ثورة واسعة للقبائل "المورية" ابتداءً من سنة 587م. وقد وجّه القائد البيزنطي **جناديوس** حملة كبيرة لإخمادها، بعد أن استعدّها جيّداً وخاض مواجهات مع ثورة شاملة شارك فيها سكان مختلف المقاطعات، وهو ما يفسّر إقدام الأهالي على بناء حصون وملجأ خاصة بهم نتيجة تدهور الأمن وعجز السلطات عن حمايتهم. دامت هذه الثورة سنتين، وتمكن جناديوس من القضاء عليها بفضل تحصين المنشآت الدفاعية. وبعد ذلك أولى الإمبراطور موريكيوس اهتماماً بتقوية الجهاز الدفاعي، فأنشأ **منطقة القنطرة** على الطريق بين اتزولت وبسكرة، لتكون حاجزاً أمام غارات القبائل القادمة من الجنوب. كما أشرف جناديوس على بناء قلعة **برج القصر** غرب سريات (قسنطينة)، في حين واصل السكان تشييد ملاجئهم الخاصة بسبب استمرار الاضطراب الأمني وعدم قدرة السلطة الرسمية على توفير الحماية.

ت. حملة 591-595م:

وجّه القائد البيزنطي **جناديوس** حملة ضد القبائل المورية التي ثارت سنة 594م، بعد أن استغلّ الثوار نقص القوات البيزنطية في شمال إفريقيا نتيجة إرسال جزء كبير منها إلى الحدود الشرقية لصدّ غزوات الصقالبة والأفار. وخلال هذه الفترة اكتسحت القبائل الثائرة مناطق الوجود البيزنطي في إفريقيا الرومانية والقنصلية لمدة أربع سنوات، حتى وصلت غاراتها إلى مشارف قرطاج، في وقت كانت فيه القوات البيزنطية غير كافية لمواجهة، مما اضطر جناديوس إلى البقاء داخل المدينة في انتظار اللحظة المناسبة.

ومع اتساع الثورة وعجز الجيش البيزنطي عن إمداد قرطاج، لجأ جناديوس إلى **حلّ سياسي**، فدعا زعماء القبائل إلى المفاوضة داخل المدينة. واعتقد الثوار أنهم انتصروا فعلاً وسيطروا على الوضع، فدخلوا قرطاج للاحتفال، فاستغل جناديوس الفرصة وانقضّ عليهم، مما أدى إلى القضاء على معظمهم.

وبهذا تمكن جناديوس من إنهاء المقاومة المورية حوالي سنة 598م، واستعاد الأمن نسبياً في المقاطعات البيزنطية بشمال إفريقيا، رغم أنه طلب لاحقاً إرسال قوات إضافية تحسباً لعودة الاضطرابات.